قراءة نقدية في رواية
"فتاة "هايدلبرج" الأمريكية"
من تأليف د/ أحمد جمال الدين موسي

بقلم أبو المعاطى أبو النجا

كيف يمكن للناقد أن يقترب من العمل الروائى الأول لشخصية عامة عمل صاحبها مرتين وزيرا للتربية، أهم مؤلفاته كانت في العلوم الإنسانية مثل "الخصخصة" و "الإصلاح المؤسسى سبيل مصر إلى المستقبل".. إلخ هل هو مطالب بتقديم تفسير لهذا الظهور المتأخر لهذا العمل؟

أم أن عليه أن يتعامل مباشرة مع هذا العمل مادام يرى أنه يمثل قيمة في الحقل الجديد الذى ظهر فيه!

ظاهرة الرواية الأدبية الواحدة ذات القيمة التى تظهر لمفكر بارز في حقل غير الأدب ظاهرة معروفة من أهم أمثلتها رواية "قرية ظالمة" للدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام المعروف، ومؤلف كتاب "وحدة المعرفة" البالغ الأهمية المهم أن تكون الرواية التى أنجزها الدكتور أحمد جمال الدين جديرة بالاهتمام النقدى، وقد تجعلنا نتطلع إلى أن تكون نقطة تحول في حياة صاحبها فنتوقع منه رواية أخرى تستكمل الإجابة على ما تثيره الرواية الأولى من تساؤلات؟!

ولا أظنه من قبيل المصادفة أن تتحدث السطور الأولى في رواية "فتاة هايدلبرج الأمريكية" التى نسعى لتقديمها للقارئ فى هذا المقال عن شخصية "الدكتور أسامة زايد" الذى يستغرق في مقعده بالطائرة التى تقله إلى نيويورك للمرة الأولى في حياته تلبية لدعوة تلقاها لحضور مؤتمر علمي دولي" وفي أعماقه سؤال قديم متجدد حول رغبته في اكتشاف أمريكا على أرضها هذه المرة، أمريكا الحقيقية، والمقارنة بين واقعها وبين ما يصلنا منها وعنها، وإلى أى مدى يتفق هذا الواقع مع ما عرفه عن أمريكا من خلال علاقته " بماجى وليامز" الأمريكية التى التقى بها في "هايدلبرج" الألمانية مع شخصيات أخرى من شتى بقاع العالم الذى أصبح يتأثر سلبا أو إيجابا بكل ما يجرى في أمريكا وخلال الرحلة بالطائرة إلى نيويورك يستعيد الدكتور أسامة زايد وهو الشخصية المحورية التى توشك أن تكون قناعاً للمؤلف أحداث ووقائع رواية " فتاة هايدلبرج الأمريكية" وكأنه يحكيها لنا.

ألا تحرضنا مثل هذه الأفتتاحية على أن نقرأ هذه الرواية باعتبارها بالنسبة لأسامة زايد هى اكتشافه الأول لأمريكا في مدينة ألمانية هى "هايدلبرج" ومن خلال فتاة أمريكية هى "ماجى وليامز" مع شخصيات أخرى من بلاد مختلفة، عبر الحدث الأعظم الذى وقع في 2001/9/11 أى بعد بداية أحداث هذه الرواية بشهور.

فى الفصول الست الأولى من هذه الرواية، نتعرف من خلال الراوى (الضمير الثالث العليم بكل شئ) على ثلاث شخصيات رئيسيه في هذه الرواية هم أضلاع المثلث الذى يقوم عليه بناء هذه الرواية، هذا إلى جوار تعرف عابر على مجموعة الباحثين في هذا المركز العلمي المتقدم في جامعة هايدلبرج بعضهم من الطلبة الألمان اللذين يتعاطف أحدهم "بيتر

شتنهوف" مع النازيين الجدد، والآخرون مبعوثون من أقطار عربية وإسلامية مختلفة، يعكسون صورة عامة في هذا المركز لما كان يحدث في مجتمعاتهم في الوقت الذى كانت تقع فيه أحداث هذه الرواية.

د/أسامة زايد الضلع الأول في هذا المثلث مصرى قادم من جامعة جرونوبل في فرنسا ليعرض بعض ما توصل إليه من نتائج في بحثه للدكتوراه في الفيزياء النووية على الأستاذ هيلموت كاسل رئيس قسم الفيزياء في هذا المركز فى إطار ما بين الجامعات الأوربية من تعاون.

" ماجى وليامز" الضلع الثاني في هذا المثلث الروائى فتاة أمريكية تدرس الأدب الألماني في جامعة هايدلبرج تلتقي د/أسامة زايد في دعوة عشاء مع أصدقاء وتقودها الأنطباعات الأولى في هذا اللقاء إلى قبول دعوة الدكتور أسامة لها للتنزه في طريق يحمل اسم ممشى الفلاسفة.

"دافيدفرتمان" ضابط شاب يعمل فى المخابرات المركزية الأمريكية كان يوماً زميل دراسة لماجي وليامز" لكنها لم تكن تستريح له بالرغم من تعلقه بها، تلتقيه هذه المرة في مصادفة تجدد آماله في التعلق بها، ولكن هذه المصادفة حين تأتى في الوقت الذى تنجذب فيه إلى أسامة زايد تبدو وكأن كمل مثلث فيه عاشقان يبدأ في البحث عن ضلعه الثالث في شكل غريم .

<u>الجغرافيا طريق لفهم الماضى والحاضر:</u>

المرات التى التقي فيها "أسامة زايد" مع "ماجى وليامز" كانت هى التى تختار أماكنها، كانت المرة الأولى أمام قلعة "هايدلبرج" وكانت هى التى تقول له:

- هل تعرف أن تاريخ هذه القلعة يحكى قصة صراع البشر المتواصل من أجل سلطة لا تدوم، والضحية دائما هو الإنسان البسيط.

وكانت المرة الثانية أمام كتدرائيه مدينة "سبير" التى اعتمدتها اليونسكو ضمن روائع التراث الإنساني العالمي وكانت "ماجى وليامز" أيضا هى التى تقول:

- مرة أخرى يا أسامة نشم عبق التاريخ ونتعرف على مأساة البناء والتدمير المتوالية في تاريخنا البشرى، لقد دُمرت هذه الكتدرائيه واحترقت وأعيد بناؤها العديد من المرات، دمرها الألمان مرات وكذلك الفرنسيون مرتين في إطار الصراع الحاد بين الكاثوليكية والبروتستانتيه!

وكانت "ماجى وليامز" أيضا هى التى تواصل في حديثها إلى أسامة.

- أنا لست كاثوليكية، وعائلتي بروتستانتيه، ولكنى بعد تأمل طويل في مسألة الدين توصلنا إلى أن مفهوم الدين إذا ركزنا على جوهره لا يختلف كثيرا من عقيده لأخرى!

وكان أسامة زايد هو الذى يعقب هذه المرة على أحاديث "ماجى" المتدفقة المحبة.

- جوهر العقيده واحد لكن الصراع ينشأ لأسباب أخرى ربما منها الإحساس بالظلم أو السعي للسلطة والمغنم أو الرغبة في التميز أو رفض الجمود والفساد! قد تكون تلك

الدوافع نبيلة أو غير نبيله، لكن الصراعات التى تنشأ عنها تلتهم في كل مرة آلاف الضحايا والأبرياء!

كانت مثل هذه الحوارات تختصر المسافات والأزمنة بين الفتاة القادمة من أمريكا وبين الشاب القادم من أرياف الدلتا في مصر ليكون اللقاء التالى بينهما في بيتها وكانت هى الداعية هذه المرة لهذا اللقاء وكان في صوتها وهى توجه الدعوة نبرة تنم عن شئ من القلق والحزن!

وفي بحثه عن دواعى قلقها سالها:

- هل هى الغربة والبعد عن الأهل؟

قالت: المسألة أكبر من هذا وذاك، لن تصدقنى إذا قلت لك أن كل مآسى البشر في العالم تقلقنى، وأفكر فيها كما أفكر في أمورى الشخصيه؟! عندما كنت في أمريكا منذ عدة سنوات أتابع مذابح الإبادة الجماعية في روندا كنت لا أتوقف عن البكاء لعجزى عن فعل شئ يخفف آلام الضحايا الأبرياء، بعدها تكرر نفس الإحساس بالعجز مع مآسي الحرب في البوسنة!

كان ما يسمعه أسامة زايد ويراه فوق قدرته على الإستيعاب والتحمل والفهم قال لها دون تدبر.

- عزيزتى ماجى لم أر في حياتى كلها مثل هذا الحس الإنساني العميق والمخلص بخاصة من....

- أمريكية.

- لم أقصد لكنى لا أخفي عليك أن لدينا في منطقتنا انطباعا مختلفا عن الأمريكيين، ربما بسبب مواقف حكوماتهم من البترول ومن الفلسطينيين!

- الحكومات تسبب عبر التاريخ الكثير من الأذى ليس فقط للآخرين ولكن أيضا لشعوبها ذاتها!

إذا كان قوس العلاقة بين "ماجى وليامز" القادمة من أمريكا وأسامة زايد القادم من مصر يوشك في ظل هذه الحوارات المستمرة بينهما أن يلتقي طرفاه بقبولها دعوته لزيارته في باريس وبحديثهما المشترك والضافى عما يمكن أن يكون برنامجا لهذه الزيارة برنامجا ينطوى الحديث عنه عما يفكر فيه كل واحد منهما بالنسبة للآخر! بما يعنى إمكان التواصل ليس فقط بين شخصين بل بين عالمين!

فإنه قد حان الوقت في إطار تقديمنا لملامح من هذه الرواية للقارئ أن نتوقف قليلا أمام الضلع الثالث في بناء هذه الرواية وهو "دافيد فرتمان".

"دافيد فرتمان" الذى التقي زميلة الدراسة القديمة "ماجى وليامز" بالصدفة فى أحد شوارع مدينة "هايدلبرج"، والذى استعاد بهذا اللقاء أملاً قديماً في أنه قد ينجح هذه المرة في كسب ودها وبخاصة وقد أصبح ضابطا في المخابرات المركزية الأمريكية يقوم الآن ببعض المهام في ألمانيا، لم يشعر باليأس تماما حين اعتذرت عن قبول دعوته للغداء يوم السبت لأنها مرتبطة بموعد مع صديق فى طريق القلعة ربما بحكم

المهنة قبع في مكان ما من الطريق ليعرف شيئا عن هذا الصديق الذى جعلها تعتذر عن دعوته!

وحين رآهما يتجولان في طريق القلعة لم يستطع أن يكبح الشعور بالغيره الذى يجتاحه وهو يرى الفتاة التى طالما حلم بها تخرج مع هذا الشاب ذى الملامح الشرقية، أيمكن حقا أن يصل الحال بماجى وليامز المتميزة بأصلها وجمالها وثقافتها الرفيعة لأن تسقط فى هذا الاختيار؟! هو لا يعتبر نفسه عنصريا، ولا يكره إنسانا لمجرد كونه من جنس آخر أو لون مختلف لكن بالنسبة لماجى فالأمر يختلف!!

لكن بسرعة يعود "دافيد فرتمان" إلى منهجه العملى في التفكير والسلوك فيقرر أن يبدأ بجمع المعلومات اللازمة عن ماجي وليامز وصديقها، فيبدأ في التردد على المركز العلمي الذى يعمل فيه أسامة زايد، وهناك بطبيعة الحال يلتقي ببيتر شتنهوف الباحث الألماني المتعاطف مع النازيين الجدد ليتكون بينهما نوع من الحلف الذى لا يرى في هذه المجموعة من الباحثين القادمين من البلاد العربية والإسلامية والعاملين في المركز سوى كارهين لنمط الحضارة الأوربية، وساعين لهدمها حين يمتلكون وسائل القدرة على ذلك!

ولا يتردد أيضا في الذهاب إلى الكلية التى تدرس فيها "ماجى وليامز" ليعرف عنها المعلومات الجديدة التى يمكن أن تكون قد فاتته والتى قد تساعده على إنقاذها مما يمكن أن تتورط فيه في علاقتها بهذا الشاب ذى الملامح الشرقية، فهو يعرف أيضا أن هؤلاء الشبان الأجانب قد ينجحون في خداع فتياتنا بالهيام المصطنع والاهتمام البالغ فيه!

إلى هنا ويمكن القول بأن كل ضلع في هذا المثلث الروائى قد وصل إلى نقطة ينتظر بعدها شيئا يعنيه.

"ماجى وليامز" الباحثة عن الاستقلال عن نفوذ أبيها الضابط الكبير في الجيش الأمريكي، والحالمة بعدل صعب التحقق، وأمن مستحيل، وفهم متبادل بين البشر، وقد بدأت تجد أطيافاً من ذلك في شخص أسامة زايد، وأسامة زايد يرى في "ماجى وليامز" حلما أمريكا لم يكن يتصور أبداً إمكان وجوده وعلى قيد خطوات منه! و"دافيد فرتمان" الذى يرى أن حلمه القديم الذى يلتقي به صدفه بعد أن أصبح قادرا على نيله، يأتى هذه المرة من هو في موقع العدو المتربص ليغرر به ويكاد ينجح فى اختطافه.

<u>الحدث الأخطر الذى لم يكن ينتظره أحد:</u>

هو حادث الهجوم بطائرتي ركاب على برجى مركز التجاره العالمي في نيويورك في 2001/9/11

من أفضل ما أنجزته هذه الرواية أنها لم تتورط في وصف هذا الحدث الذى كان العالم يتابعه لحظة بلحظة أشارت بإيجاز إلى أن تليفون إسامة زايد هو الذى أيقظ "ماجى وليامز" وقد كانت نائمة ، ليخبرها بما كان يراه على التليفزيون، وأنها هى التى صرخت حين رأت ما كان يحدث على الشاشة وطلبت منه أن يأتى فوراً!

وأن ماجى هى التى كانت تهدئ ممن روعه إسامة حين شعرت بعمق معاناته حين بدأ يظهر من تعليقات المذيعين أن من قاموا بهذا الحدث هم متطرفون من تنظيم القاعدة!!

ثم لقطة أخرى على أفراد التجمع الطلابي العربي في هايدلبرج ظهر فيها واضحا ذلك الاختلاف العربي الأزلي في تقدير الفعل ورد الفعل نتيجة لتعدد الانتماءات إلى تيارات سياسية أو دينية عقلانية أو متشددة!

وإن كان الشعور العام الذى كانوا يتفقون حوله هو القلق بشأن ما يتعلق بمستقبلهم في البلاد التى يدرسون فيها أو حتى في بلادهم الأصلية!

كانت أمريكا التى كانت دائما نائية وبعيدة ويتطلع الناس للذهاب إليها هى التى تتحرك الآن لتطارد من تراهم خصومها في عقر دارهم!

"دافيد فرتمان" الضلع الثالث من المثلث في هذه الرواية هو الذى بدأ وكأنه وحده هو الذى كان ينتظر هذا الحدث الأخطر الذى لم يكن ينتظره أحد، لقد جاءه على طبق من ذهب بذلك الدليل الدامغ على جدية الخطر الذى يمثله هؤلاء الطلبة العرب والمسلمون الذين يدرسون العلوم المتقدمة في جامعاتنا والذى كان يتحدث عنه فلا يصدقه سوى بيترشتنهوف ، وكانت المعلومات التى بدأت تتسرب عن التحقيق في الحدث الأخطر عن أن محمد عطا أحد مدبرى الهجوم على نيويورك والمشاركين فيه طالب دكتوراه مصرى في هامبورج هو أحد أهم الأسباب التى جعلت مسئول المخابرات الأمريكية في "هايدلبرج" يوافق على الطلب الذى تقدم به "دافيد فرتمان" ليقوم بجمع معلومات عما يعتقده حول وجود خلية إرهابية كامنة في قسم الفيزياء في جامعة هايدلبرج، وبدأ تحت غطاء ذلك الإذن بالاتصال ببيترشتنهوف الذى كان لا يقل عنه حماساً بعد أن أنضم إليهم فريق بحثى مكلف من مكتب المخابرات الألماني المحلي في هايدلبرج والمعروف بمكتب حماية الدستور!

المشكلة أن دافيد فرتمان لم ينتظر ما يمكن أن تسفر عنه جهود فريق البحث والتحرى حول حقيقة ما كان يظنه من وجود خليه إرهابية في قسم الفيزياء بجامعة هابدلبرج!

بادر بالاتصال بماجى وليامز ليقول لها بلهجة مصارحة في الواقع أنا أعمل مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، لقد تقابلنا مصادفه ثم شاهدتك ذات مرة عرضا أيضا بصحبة شاب أجنبي تصادف أننى كنت أتتبعه لأن لدينا معلومات عن ارتباطة بمنظمة إرهابية.

- أى شاب تقصد؟
- الشاب المصرى أسامة زايد هو يدرس الفيزياء أليس كذلك؟
- أسامة أرهابي، هذا أمر يصيبنى بالدهشة الشديدة لا أتخيله.
- هكذا الارهابيون، لديهم مقدرة على التخفي، واصطناع صورة غير حقيقية عن أفكارهم ومشاعرهم، إن ماحدث في 11 سبتمبر يؤكد هذا السيناريو ، ألم يكن معظم المشاركين يتلقون العلم في أفضل الجامعات الأوربية؟

ألم تظهر أفادات الزملاء والجيران أن سلوك هؤلاء كان دائما مثاليا وفوق الشبهات، ألم يعبر أصدقاؤهم وزووهم عن هول مفاجأة اكتشاف كون هؤلاء الأصدقاء والأبناء قد أخفوا بعناية لسنين وشهور حقيقتهم الإرهابية؟!

ارتبكت ماجى وأصابها الوجوم هل يتعين عليها أن تصدق معلومات دافيد وتحليله المنطقي أم تثق في مشاعرها وأحاسيسها تجاه الشاب الذى لم تر منه منذ لقائهما الأول سوى المشاعر الإنسانية الصادقة والطيبة.

أحست تحت نظرات دافيد بالرعب والخواء هل إلى هذا الحد أصبح العالم الذى تعيش فيه غير آمن؟!

كيف تستوعب هذا الذى يؤكده دافيد، وقد رأت بنفسها حزن أسامة العميق لما حدث في نيويورك؟

كانت قد أتخذت قرارها بمواجهة أسامة وليكن مايكون فهي لم تخف أحدا من قبل ولهذا لن تخشاه حتى لو كان حقا إرهابيا!

ربما توقع دافيد مادار في تفكير ماجى ورد فعلها المحتمل لهذا فأجأها بطلب محدد هو عدم إبلاغ أى شخص آخر بمضمون حوارهما خاصة أسامة زايد وإلا فإنها ستعرض للخطر تحرياته وربما حياته وحياة زملائه والمصالح العليا لأمريكا!

زاد وجوم ماجي وطفرت دمعتان من عينيها وكادت تبكي من الالم والفزع النفسي الذى تغلب عليها ، ورغبت فى أن تصفع دافيد وكذلك أسامة، وكل من يتسبب فى زعزعة سكنيتها والعبث بصفاتها الذاتى!

همهمت "ماجى" أنها ستحتفظ بسرية هذا الحديث، ولن تقابل أسامة حتى ينتهى من تحرياته، ثم انتفضت مغادرة مقعدها رافضة اصطحاب "دافيد" لها يتملكها دافع شديد للهرب من الجميع!

كيف واجهت ماجى أزمتها الروحية تلك؟ ماذا حدث لأسامة زايد وبعض زملائه من الباحثين العرب أمام لجان التحقيق التى انعقدت للبحث عن حقيقة مارده "دافيد" عما يمكن أن يكون لهم من علاقات مع تنظيمات إرهابية؟!

الصفحات التى تقدمها الرواية بعد تلك اللحظة تبلور ذلك النوع الرفيع من المعرفة الذى لا يقدمه سوى الأدب الروائي الراقي، المعرفة التى تغير من طريقة إدراكنا للأشياء ولما يجرى من حولنا! ماذا يحدث داخل الإنسان حين تهب رياح الفاشية العاصفة فتدمر ذلك الجهاز الحساس الذى يتكون في داخل الإنسان عبر تجارب الزمن ليقول له في المواقف الملتبسة ماذا يختار؟ وماذا يفعل؟ وبمن أو بماذا يثق؟ وكيف يمكن للإنسان أن يعبر أزمته لتعود لبوصلته الداخلية صفاءها وقدرتها على إدارة دفة الحياة!

تصور هذه الصفحات رحلة المشى على الصراط التى قطعتها ماجى وليامز عندما استجابت لدعوة فريق البحث والتحرى الألماني لأخذ شهادتها حول ما تعرفه عن أسامة زايد، وحين أدركت أن شهادتها القوية الواثقة التى أدلت بها أمام اللجنة هى التى كشفت لهم خواء مزاعم دافيد فرتمان!

ظنت لبعض الوقت أن المشكلة في طريقها للحل، وأسامة في طريقة لبيته، ولكن ما حدث هو أن دافيد فرتمان نجح في إقناع رؤسائه في المخابرات الأمريكية بأن مسئولية هذا التحقيق ينبغي أن تكون لهم، وأنهم الأقدر في الوصول إلى الحقائق

الخافية في هذه القضية بطرقهم الخاصة التى لا تريد المخابرات الألمانية أن تستخدمها بحجة أنها غير قانونية!

وهنا لم تجد ماجى وليامز مفرا من أن تلجأ إلى أبيها الضابط الكبير في الجيش الأمريكي لإنقاذ أسامة الذى كان كل ذنبه أنه كان صديقها لها!

قالت له الحقيقة كاملة كما تراها، وأبدت أسفها لما قد تسببه له من حرج، وطلبت منه أن يتأكد هو من الحقيقة بطريقته فهي على ثقة بأن "دافيد فرتمان" هو وراء كل ما يحدث لأسامة هذا! وهى لا تريد أن يضار إنسان بسببها!

بعد وقت أخبرها أبوها بلهجة لا تخلو من حنان ومن حسم أنه سوف يتم الإفراج عن أسامة زايد، وأنه سيكون عليه أن يغادر "هايدلبرج" خلال يومين، وأنه عليها هى أن تعود إلى أمريكا لتعيش في كنفه.

كانت طوال عمرها تبحث عن الاستقلال والحرية، وكانت تعتقد دائما أن عليها أن تدفع عن طيب خاطر الثمن الذى يتطلبه الاستقلال والحرية!

ولكن حين لم تكن شهادتها وحدها أمام لجنة التحقيق الألمانية كافية لإنقاذ أسامة فقد كان عليها أن تقبل في نهاية الأمر – ولو إلى حين – ذلك القدر من الحرية الذى يكافئ ما استطاعت أن تدفعه من ثمن ، وكان ذلك التغير في إدراك أن لكل حرية حدودها الموقوته في الزمان والمكان، هو جزء لا غنى عنه لاستعادة البوصلة التى تعيد للإنسان قدرته على إدارة الحياة الممكنة فوق هذا الكوكب!